حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

مدرسة النحو في الكوفة وطبقاتها

الشيخ محمد جعفر الكرباسي

أستاذ الدراسات النحوية والقرآنية في مدرسة النجف

بودي أن نتفق قبل أن نتحدث لماماً عن تحديد معنى كلمة الكوفة فإنها من الكلمات المحاطة بالشوك والتعاريف المتضاربة قديماً وحديثاً، فالكوفة بالضم: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق وسميت كوفة لاستدارتها وقيل لاجتماع الناس فيها، ويعزى هذا على الأكثر كون موقع الكوفة الجغرافي كان مهماً له الأثر الكبير في الاتجاه الثقافي فبقيت اللغة الفصحى هي لغة القلم فقط لا لغة اللسان فلم تمتزج بالنفس امتزاج العامية حتى تستطيع أن تمثل إحساسات النفس وعواطفها.

لقد كان للكوفة شان يذكر يوم كانت جامعة الإسلام محطاً للعلوم والمعارف ومغرساً للهداية الإسلامية، وكانت كعبة الوفود والقاصدين إليها لارتياد مناهل العلم والأدب والقرآن الكريم. فأصبحت الكوفة داراً لهجرة المسلمين، فهبط فيها سبعون رجلاً من صحابة الرسول(ﷺ) ممن شهدوا بدراً، وثلثمئة من أصحاب الشجرة وكان بينهم عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وقد حظيت الكوفة بشرف حينما أتخذها الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) عاصمة له مدة حكمه فتخرج فيها قادة محنكون وزعماء مرشدون، وأنجبت كثيراً من الشعراء والعلماء المبرزين والقراء والنحويين، ويتضح لنا من هذا أن النظرة الواحدة لحالة الكوفة الاجتماعية تكفي في أن تبعث في نفوس المخلصين مكانتها في الإسلام، لأن المجتمع الكوفي لم تصل إليه التفافات الفارسية واليونانية[1].

سكنت الكوفة قبائل من بني أسد. الذين عرفوا بالفصاحة وهو أمر مسلم به فقد كان لبني أسد في هذا المضمار خط وافر في علم النحو وعلى رأسهم الكسائي(١٨٩هـ) والفراء(٢٠٧هـ) وهما أسديان، وعلى كل حال إذا قصدنا بالنحو ما يعبر عن شعور الفرد والأمة تعبيراً صادقاً، ويرتبط بالمحيط ارتباطاً وثيقاً فيكون للمحيط فيه أثر واضح، وفي لهجة بني أسد. تطل علينا في كتب أئمة النحاة من البصرة والكوفة على السواء يدعمون بها قاعدة أويبينون بها وجهاً لمسألة نحوية. ومنها ظهرت المدارس النحوية والإقبال عليها من العرب والموالي معاً، ونما هذا العلم وكثرت مسائله وتنوعت فيه وجوه الرأي فوجد فيه مذهبان: مذهب أهل البصرة ومذهب أهل الكوفة وتعاقبت طبقات من رجال المذهبين فمن متقدمي نحاة البصرة عبد الله بن أبي وإسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر الثقفي والخليل بن أحمد(-١٧٥هـ) وسيبويه(-١٨٠هـ) وحماد بن سلمه. ومن متقدمي نحاة الكوفة الرؤاسي(-١٨٧هـ) ومعاذ الهراء والكسائي والفراء، كان هؤلاء النحاة يتبعون كلام العرب ليستنبطوا منه قواعد النحو ومن أجل التخلص من هيمنة الاختلاف.

نشات مدرسة الكوفة وظهر فيها أعلام مشهورون ألفوا طبقاتها:

(١) الطبقة الأولى:

١- **الرؤاسي**(-١٨٧هـ) : هو أبو جعفر محمد بن الحسن مولى محمد بن كعب، ولقب بالرؤاسي لكبر سنه، نشا في الكوفة دوراً وبالبصرة أيضاً فاخذ عن أبي عمرو بن العلاء(-١٥٤هـ) وغيره، ثم توجه إلى الكوفة وأشتغل في النحو مع عمه معاذ الهراء ويرجع إليه بدء النحو في الكوفة دراسة وتأليفاً فهو راس الطبقة الأولى الكوفية، فالرؤاسي أستاذ أهل الكوفة في النحو وله كتاب الجمع والأفراد وزعم ثعلب أن أول من وضع من النحويين الكوفيين في النحو كتاباً الرؤاسي وألف الرؤاسي كتاب الفيصل رواه جماعة وكتاب التصغير وكتاب معاني القرآن، وقد أستبعد المرحوم الدكتور مهدي المخزومي أن يكون الرؤاسي مؤسس النحو في الكوفة[2].

٢- **معاذ الهراء**: هو أبو مسلم لقب بالهراء لبيعه الثياب الهروية، وهو عم الرؤاسي، إمام في الكوفة وأشتغل مع أخيه

(١) نحو القراء الكوفيين، خديجة أحمد مفتي، دار الندوة بيروت. ط١ ١٩٨٠. ص١٩٧.

(٢) المصدر السابق: ص١٩٧.

في النحو وكان ولوعاً في الأبنية حتى عده المؤرخون واضع الصرف وبنى السيوطي على هذا، مما يبين السيوطي فيما أدعاه أنه ليس لمعاذ في كتب التصريف آراء تنسب إليه ذات قيمة، وكان علمه بالصرف مثل علم الرؤاسي في النحو، كان علماً محدوداً لا غناء فيه ولا شيء يميزه عن البصرة.

٣- **الكسائي**(-١٨٩هـ) : هو علي بن حمزة مولى بني أسد، ولد في الكوفة سنة ١١٩هـ تسع عشرة ومئة، ونشأ فيها وواكب منذ نشأته على حلقات القراء ويقال أنه لقب بذلك لأنه أحرم في كساءً وكان فطناً وذكياً، فاختلف إلى حلقات الرؤاسي وتعلم النحو على كبر لأن قوماً لحنوه فانف وقام من فوره وأخذ يتعلم النحو فتلقى عن معاذ الهراء، ثم انصرف إلى البصرة وأخذ عن عيسى بن عمر والخليل وغيرهما، وتنقل في الحجاز وتهامة ثم انحدر إلى البصرة ثم عاد إلى الكوفة ينشر علمه، والكوفة متعطشة إلى النحو وكان نشيطاً وبه بدأ النحو الكوفي وفي زمانه تفوق المذهب الكوفي وبدأ يناهض البصري وذاعت شهرة الكسائي الذي دوى ذكره وهو أحد القراء السبعة وطلبه المهدي ليتخذه مؤدباً لأبنه هارون وضمه إلى حاشيته حتى إذا ولي الخلافة بعد أبيه أتخذه مؤدباً لأبنيه الأمين والمأمون. ومن هنا ساد المذهب الكوفي وتكاثرت إتباعه، ويروى أن الكسائي جاء يوماً إلى المأمون للتعلم فوجده مشغولاً بالشراب فكتب له:

للنحو وقت وهذا الوقت للكاس
وللندما وسم الورد والآس

فكتب الكسائي على ظهر الورقة:

لو كنت تعلم ما في النحو من أدب
أغنتك لذته عن لذة الكاس
لو كنت تعلم من في الباب قمت له
سحباً على الأرض أو مشياً على الراس

فخرج له وأكرمه[١].

وكان أئمة الكوفة يرحلون إلى القبائل العربية ليتعلموا الفصاحة والبلاغة من هذه القبائل على نحو ما حدثنا الرواة عن الكسائي، فقد قالوا أنه خرج إلى نجد وتهامة والحجاز (ورجع وقد أنفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه) وهذا معناه أن الكوفيين وفي مقدمتهم الكسائي كانوا لا يكتفون بما يأخذون عن فصحاء العرب، إذ كانوا يأخذون عمن سكن من العرب في حواضر العراق، وقد حمل البصريون على الكوفيين حملات شعواء حين وجدوا أنهم يتسعون في الرواية على هذه الشاكلة، وخصوا الكسائي بكثير من هذه الحملات: قائلين(أنه كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز، من الخطا واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضروريات فيجعل ذلك أصلاً ويقيس عليه حتى أفسد النحو) من أجل ذلك كان الكوفيون أقرب إلى الحق والواقع حين(أجازوا القياس على المثال الواحد المسموع) وحين يعتبرون اللفظ الشاذ فيقفون عليه، ويبنون على الشعر الكلام من غير نظر إلى مقاصد العرب ولا اعتبار بما كثر وقل، وهذا رأي اللغوي والنحوي الكبير أبو زيد الأنصاري شيخ سيبويه ومعلمه فقد كان يجعل الفصيح والشاذ سواء. وكان ذلك بدءاً لخلاف واسع بين المدرستين فالبصرة تشدد في فصاحة العربي الذي تأخذ عنه اللغة والشعر، والكوفة تتساهل فتأخذ عن الأعراب الذين قطنوا حواضر العراق، وقد وقف الكوفيون من هذا البناء العلمي المحكم موقفاً يدل على نقص فهمهم لما ينبغي للقواعد العلمية من سلامة واطراد إذ اعتدوا بأقوال وأشعار المتحضرين من العرب كما اعتدوا بالأشعار والأقوال الشاذة التي سمعوها على ألسنة الفصحاء مما خرج على قواعد البصريين وأقيستهم ومما نعتوه بالخطا والغلط[٢].

(٢) الطبقة الثانية:

١- **الأحمر**: هو أبو الحسن علي ابن الحسن المعروف بالأحمر كان جندياً على باب الرشيد ثم سمت نفسه إلى العلم فكان يترصد في الطريق الكسائي عند حضوره للرشيد ويسير معه حتى عد من أصحاب الكسائي، ولما مرض الكسائي وكره الرشيد ملازمته أولاده فاستخلف الأحمر وكان يقظاً فطناً حين تبوأ مكانة الكسائي واجتمع عليه الناس وصنف كتاب التصريف ومات بطريق الحج سنة ١٩٤هـ

٢- **الفراء**(٢٠٧هـ) : هو أبو زكريا يحيى بن زياد مولى بني أسد، ولقب بالفراء لأنه كان يفري الكلام، ولد في الكوفة وتلقى عن الكسائي وغيره، وتبحر في علوم متنوعة وتقصى أطراف علم النحو حتى قيل فيه: الفراء أمير النحو وهو الذي قال:(أموت وفي نفسي شيء من حتى لأنها ترفع وتنصب وتخفض) . وتقرب إلى الخليفة فأحاط برعايته وألف كتاب الحدود.

٣- **اللحياني**: هو أبو الحسن علي بن المبارك من بني لحيان، أخذ عن الكسائي وغيره وله كتاب النوادر، توفي سنة ٢٢٠هـ

(٣) الطبقة الثالثة:

١- **ابن سعدان**: أبو جعفر الضرير محمد بن سعدان: نشأ في الكوفة وأخذ عن أبي معاوية الضرير وغيره، ثم اشتهر بالعربية والقراءات صنف كتاباً في النحو وتوفي سنة ٢٣١هـ

٢- **الطوال**: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الطوال النحوي، من أهل الكوفة وأحد أصحاب الكسائي والفراء. كان حاذقاً في المسائل النحوية قدم بغداد وأقرأ فيها ومات سنة ٢٤٣هـ

(١) أخبار النحويين البصريين: السيرافي تحقيق طه الزيتي، محمد عبد المنعم خفاجي ط١٩٥٥ ص٨٣.

(٢) المدارس النحوية: شوقي ضيف ط٣ دار المعارف مصر ص١٨٧.

٣- **ابن القادم**: هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن قادم: أخذ عن الفراء ومهر في النحو واتصل بالعباسيين فأدب المعتز قبل الخلافة ومن مصنفاته النحو الكوفي والمختصر، توفي سنة ٢٥١هـ

(٤) الطبقة الرابعة:

١- **ثعلب**: أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، ولد في بغداد في عصرها الذهبي وأخذ عن ابن الإعرابي وسلمه بن عاصم وأعتز بالنحو وأهتم به، واعتماده كان على سلمه بن عاصم، وقد وهبه الله تعالى حافظة واعية مكنته أن يستظهر ما يقرأه فحفظ كتاب الكسائي والفراء وقرأ بنفسه كتاب سيبويه وصار زعيم الكوفيين إلا أنه لا يأخذ بالقياس، ومن مصنفاته في النحو ما ينصرف وما لا ينصرف وغير ذلك، توفي في بغداد من صدمة دابة له في الطريق سنة ٢٩١هـ

وبهذا يموت ثعلب (انتهى الاجتهاد في النحو على يده، وأشتهر من تلاميذ ثعلب كثيرون في مقدمتهم أبو موسى سليمان بن محمد المعروف بالحامض وهو المقدم من أصحابه إذ جلس مجلسه بعد موته وكان يتعصب على البصريين، ومن أصحابه غلامه أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد، كان حافظاً مكثراً من اللغة وفيها ألف كتابه الياقوت[١].

وكان أبو بكر محمد بن الحسن المقرئ النحوي العطار المعروف باسم ابن مقسم تأثر في ثعلب واقتدى بمباحث ثعلب فألف فيها كتباً ومصنفات مختلفة منها كتاب السبعة الكبير، وكل هؤلاء التلاميذ لا تدور لهم آراء في كتب النحو وكأنما كانوا امتداداً لمباحث ثعلب اللغوي وقد اتسع بها ابن مقسم في الاحتجاج للقراءات السبعة وكان يقصر عليها نشاطه.

وربما كان أنبه تلاميذ ثعلب في المباحث النحوية أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري ولد سنة(٢٧١هـ) وأكب منذ نشأته على حلقات العلماء في عصره مثل حلقة ثعلب خاصة، وكانت له حافظة قوية وصنف كتباً كثيرة في علوم القرآن وغريب الحديث والمشكل والوقف والابتداء كما صنف في اللغة والنحو كتاب الأضداد، ولأبي بكر بن الأنباري آراء مختلفة تدور في كتب النحاة وذلك أنه يذهب إلى أن (إلى) قد ترد اسماً فيقال: (انصرفت منك إليك)، وكان يجعل في معاني(كان) الشك (وكأنك بالشقاء مقبل) أي أظنه مقبلاً، وكان يجيز في تابع المنادى العلم إذا كان مضافاً الرفع فنقول:(يا زيد ذو المعرفة) و(يا محمد أبو عمر)[٢]. والجمهور لا يجيز سوى النصب. وكان البصريون ومن ما لأهم بعيدين عن الجادة حين ارتضوا الكثرة واعتصموا بها من غير تبيان لحدودها ومداها، وكان الفراء يتوسع مثل أستاذه الكسائي في الرواية عن الأعراب المتحضرين، وإن كنا نلاحظ أنما كان يتتبع فصحاءهم ممن سميناهم في غير هذا الموضع أمثال ابن شروان وابن الجزاح وتدل كثرة ما رواه عن العرب وقبائلهم أنه كانت له رحلة واسعة إلى الجزيرة، إذ يكثر في كتابه معاني القرآن أن يقول:(وسمعت العرب تقول، أو يقول أنشدني بعض بني أسد أو بعض بني كلاب أو بعض ربيعة أو بعض بني عامر أو بعض بني حنيفة إلى غير ذلك من قبائل كثيرة، وأكثر أيضاً من الرواية عن المفضل الضبي، أما الكسائي فله الحظ الأوفر من الأشعار التي أشتهر بها معاني القرآن وقلما يذكر اسم الشاعر الجاهلي والإسلامي الذي ينشد من شعره، ولقد كان يتوسع فيه أقصى حد أمكنه ملتمساً منه القياس وخاصة إذا اتفق مع بعض آي الذكر الحكيم وبعض قراءاته، وقد يمد القياس إلى أحكام لم ترد في القرآن الكريم ولا على ألسنة العرب. وكان الكوفيون يقولون:(إن أسم الإشارة حين يليه مرفوع ومنصوب فقد كانوا يشبهونه بكان الناقصة ومعروفة أنهم كانوا يعربون خبرها حالا عند الفراء وترى تعليلاً يقول:(هذا) تكون مثالاً(وهي التي لا يليها مرفوع ومنصوب) وتكون تقريباً، فإذا كانت مثالاً قلت(هذا زيد) وإذا قلت هذا كزيد قائماً فهو حال كأنك قلت هذا زيد قائماً، ولكنك قد قربته التقريب مثل كان.

وكان ثعلب يسمى أسم الفاعل بالفعل الدائم(يقول) ولا تجئ عسى إلا مع مستقبل ولا تجيء مع ماضي ولا صفة، ويقول ابن كيسان(-٢٩٩هـ) : قال لي ثعلب: كيف تقول مررت برجل قائم أبوه؟ فاجبته بخفض قائم ورفع الأب، فقال لي: باي شيء ترفعه، فقلت بقائم، فقال: أوليس هو عندكم(يشير إلى أنه بصري المنزع) أسماً وتعيبوننا بتسميته فعلاً دائماً.

وأكثر مجالسه من تسمية النفي باسم الجحد مثل قوله: كل استفهام يكون معه الجحد فالجواب نعم، وإنما كره أن يجاب ما فيه جحد بنعم لئلا يكون إقراراً بالجحد من المتكلم وهو يريد أن يقول أنك تجيب على مثل: أمعك كتاب؟ بنعم أي أنه معك.. والأمثلة كثيرة ولكن الوقت لا يتسع لذكرها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مصادر البحث ومراجعه:

١- **أحمد مفتي، خديجة:**
نحو القراء الكوفيين، ط١، ١٩٨٥، مكة المكرمة، رسالة ماجستير إشراف د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي.

٢- **السيرافي:**
القاضي أبي سعيد الحسن بن عبد الله السرافي(-٣٦٨هـ) أخبار النحويين البصريين، ط١، ١٩٩٥، تحقيق: طه محمد رضا الزيني، محمد رضا عبد المنعم خفاجي.

٣- **ضيف شوقي(الدكتور) :**
المدارس النحوية، ط٣، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦.

* * *

(١) أخبار النحويين البصريين: ص٩٦.

(٢) نحو القراء الكوفيين: ص٢١٢.